د. محمد مصطفى هدارة

الناقد الدكتور مصطفى هدّارة

حاوره : د. سعد أبو الرضا

الناقد الكبير الدكتور محمد مصطفى هدارة أحد المجابهين القلائل في ساحتنا الثقافية، يحمل ـ دومًا ـ قلمه ليعبر بصراحة ووضوح شديدين عن مجريات الأمور في حياتنا الفكرية، وتجرّ صراحته عليه قلاقل، ولكنه لا يخشى في الحق لومة لائم.

وفي الحوار الذي أجرته «مجلة الأدب الإسلامي» أكد الدكتور هدارة أن مصطلح الأدب الإسلامي بعيد البعد كله عن إلزام القهر الذي ارتبط بالشيوعية زمنًا حتى انداحت أركانها، وأن الحداثة المخاتلة البعيدة عن المنطق والعقل لا تتفق مع بيئتنا الإسلامية، خاصة و إن الغرب نبذها وراح يبحث عن ما بعدها.

عن مصطلح الأدب الإسلامي ومفهومه عند المهتمين؛ يقول الدكتور هدّارة:

ـ الأدب الإسلامي من وجهة نظري هو الأدب الذي يعبر عن الرؤية الإسلامية الصحيحة لكل ما هو ماثل في الكون وما هو حادث فيه، والإنسان ـ بطبيعة الحال ـ بكل عناصره جزء مهم من هذا الكون. والمصطلح ـ بهذا التصور ـ يؤلف مذهبا أدبيا له أصوله الفكرية التي تحدد إطاره العام شأنه في ذلك شأن المذاهب الأدبية الأخرى التي نشأت في الغرب معبرة عن فلسفات خاصة ورؤى فكرية مختلفة، وقد تسربت إلينا من خلال موجة التغريب التي طغت على وجدان الإنسان العربي المسلم، فحملت هذه المذاهب كثيرا من غثاء الفكر المادي الأوربي وعبّرت في معظمها عن التمرد حتى على الوجود الإلهي. واختلفت كثيرا مع بعض المهتمين بالأدب الإسلامي حين يحصرونه في أدب الوعظ والدعوة إلى الفضائل الإسلامية بطريقة تقريرية، أو حين يقررون أنه أدب الشعوب الإسلامية بعامة حتى تلك التي خرجت عن منظومة الاتحاد السوفييتي المنحل، وليس الأمر كذلك فربما وجدنا أدبًا في شعوب إسلامية يبعد كل البعد عن الرؤية الإسلامية.

رؤية خاطئة:

وعن إنكار بعض العلمانيين وجود ما يسمى بالأدب الإسلامي، يقول:

ـ بل قل كل العلمانيين لهم هذا الموقف، ومن المؤسف أن نجد في وقتنا الراهن اتساعا في مساحة العلمانية في أوساط المثقفين وهم يصدرون عن رؤية خاطئة تربط تخلف العالم الإسلامي في العلوم والصناعات بتمسكه بالدين، وتظن أن أوربا قد انطلقت للتقدم بعد الثورة البروتستانتية وهذا كله وهم فالإسلام ليس فيه سلطة دينية متسلطة على أفكار الناس وأقدارهم كما كان الحال في الكنيسة الكاثوليكية. والتقدم الحقيقي حدث في أوربا بعد عصر النهضة وليس بعد الثورة البروتستانتية. ومن العجيب أن نجد التركيز العلماني (الخاضع خضوعا كاملا للنزعات الشاذة في الفكر الغربي) على الجانب الأدبي والثقافي في الفكر العربي الإسلامي دون الدعوة الجادة للتقدم في مجال الصناعات والعلوم و إيجاد قاعدة صناعية وعلمية قادرة على الاكتفاء بنفسها دون الاستناد الكامل على الغرب في كل خطواتها وفي كل مسمار في آلاتها.

> **لهذه الأسباب اتسعت مساحة العلمانية في أوساط المثقفين العرب!!**

ومن الطبيعي أن يدين هؤلاء ـ بحكم رؤيتهم الخاطئة ـ كل ما ينتسب للإسلام بزعم أنه ضد الحرية الفكرية التي يلهجون بها ستارا يغطي كل مآربهم الخبيثة التي تجعل هذه الحرية مرادفة للفوضى الاجتماعية والإباحية المطلقة لكل ما يصادم العقيدة والأخلاق والأعراف والقيم.

وأذكرك برسالتي التي بعثت بها إلى رئيس جمهورية مصر العربية أنبه فيها إلى خطر الامتداد العلماني الذي يتستر وراءه الآن الماركسيون السابقون المنتشرون في أخطر المواقع الثقافية في صحف مصر ومجلاتها الثقافية. وقد أوجعتهم هذه الرسالة وأفزعتهم خاصة أنني نبهت فيها على نموذج لا تجاهلهم وهي الدعوة التي وجهها الدكتور جابر عصفور رئيس تحرير مجلة فصول إلى المثقفين ـ وكنت واحدا منهم ـ يطلب فيها الإسهام في تحرير عدد عن الحرية والإبداع مع التركيز على معوقات الإبداع وفي مقدمتها المقدسات والمحرمات، ثم ظهرت نتائج فعلية لهذا الاتجاه ليس بكتابة مقالات في تأكيد مفهومه بأقلام أساطينه وكهانه فحسب بل في نوع الإبداع الذي ينبغي تشجيعه وأعني بها تلك القصيدة المنحطة التي نشرتها مجلة إبداع وتتضمن رموزا جنسية فاضحة تسخر بالذات الإلهية. فكيف يسمى بالأدب الإسلامي.

الناقد الدكتور مصطفى هدّارة

دون انغلاق

وعن رؤية بعض النقاد أن الالتزام الإسلامي في الأدب يثقله ويحدد رؤيته ويمنع انطلاقه إلى آفاق رحيبة يقول الدكتور هدارة:

ـ اصطلاح الالتزام ارتبط فترة طويلة بالاتجاه الدافعي الماركسي الذي كان منغلقًا على نفسه متعبدا الفكر الماركسي، ويجعله نصب عينيه في كل إبداعاته حتى إن شاعرهم الكبير مایاكوفسكي لم يتحرج من كتابة قصيدة يمجد فيها الحكومة بعد أن رفعت أثمان تذاكر المواصلات العامة، وهو موضوع كما ترى لا يصلح أن يكون شعرا بأية حال من الأحوال وعلى الرغم من سمو التعاليم السماوية في الإسلام بحيث لا تقارن بتعاليم ماركس المادية فإنني لا أرى أن يكون الالتزام بها قيدا يعوق حرية الإبداع أو يحصره في موضوعات ثابتة لا يحيد عنها، وحين بينت في السؤال الأول مفهوم الأدب الإسلامي وقلت: إنه الأدب الذي يعبر عن الرؤية الإسلامية الصحيحة لكل ما هو ماثل في الكون وما هو حادث فيه، أخرجته من حدود الالتزام الضيق الذي يتحول في الحقيقة إلى إلزام. فأنا أرى أن الأديب المسلم الذي تشرب فكره ووجدانه تعاليم الإسلام نقية بريئة من البدع والضلالات والأوهام يستطيع أن يعبر عن أي معنى يخطر له من واقع الرؤية الصحيحة الإسلامية دون أي إلزام. وهذه الرؤية الإسلامية سوف تتيح له الحرية الكاملة في فكره بحيث يتناول مشكلات الحياة وقضايا الإنسان والمجتمع معصوما من الوقوع في حمأة الرذيلة، ومستنقع الانحراف اللذين يجذبان إلى قاعهما كل من لا يصدر عن رؤية إسلامية تنير فكره وبصيرته.

وأن الأدب أولا وأخيرا ـ الذي يستحق أن يسمى أدبا ـ ليس فكرا تقريريا مهما سما هذا الفكر ولكنه تعبير جميل يمتزج فيه المضمون بالشكل بحيث يصير فنا يمتع الفكر والوجدان. وتلك ناحية ينبغي التأكيد على عدم التهاون فيها، فلست مضطرا إلى قراءة «منظومة» إسلامية تلتزم الحقائق والإيقاع الموسيقي وتخلو من كل عناصر الجمال الفني. ولست مضطرا إلى قراءة رواية تكشف عن رؤية إسلامية صحيحة لكاتبها، ولكن تغيب عنها عناصر الجمال الفني الروائي، وهكذا لا نستطيع أن نضحي بالجانب الجمالي فيما نسميه الأدب الإسلامي مكتفين بتحقق عنصر الفكر.

فكرة خاطئة:

ربما كان للمقولة القديمة عن ضعف الشعر العربي بعد ظهور الإسلام أثر في نفور بعض النقاد والمبدعين من اتجاه الأدب الإسلامي، لكن الدكتور هدارة يصحح الفكرة قائلا:

ـ هذه المقولة المنسوبة للأصمعي ليست صحيحة على إطلاقها ومع اقترانها بقوله إن الشعر يقوى في الشر فإذا دخل في الخير ضعف ولان، نتوقف كثيرا؛ لأننا نعلم أن الأصمعي صاحب اتجاه أخلاقي في نقد الشعر. ومنذ سنوات طويلة رددت على هذه المقولة في بحث بعنوان (الإسلام والشعر) بينت فيه من واقع النصوص الإسلامية التي أنتجها عصر صدر الإسلام أن الإسلام لم يمنع الشعر وإنما حض الشعراء على تجنب بعض ما كانوا يخوضون فيه في الجاهلية، مما يبرأ منه الإسلام كالهجاء المقذع والغزل الفاحش وفيما عدا ذلك المحظورين فمجال الإبداع، رحيب أمام الشعراء. ومن الطبيعي أن نجد من وقع في هذين المحظورين هم الشعراء الذين لم تتشرب نفوسهم الرؤية الإسلامية الصحيحة من أمثال الحطيئة والنجاشي. أما الذين صح إسلامهم فقد تطور إبداعهم دون أن يتوقف أو يضعف مثل حميد بن ثور الذي ظل يتغزل ولكن في عفة متخذا لمحبوبته رمزا كالشجرة. فاقتران قوة الشعر بالشر وضعفه بالخير ليس له أساس نقدي. فالعبرة بالتجربة الشعرية التي يمارسها الشاعر من خلال تكوينه الثقافي والاجتماعي والنفسي. وكلما كانت التجربة صادقة في إحساس الشاعر بها، وعدم فرضها عليه من الخارج، أنتجت شعرا بديعا يمتع الفكر والوجدان معا وأسوق في ذلك مثالين لشاعر واحد هو ابن حزم الأندلسي. يقول في المقطوعة الأولى:

من الماء أنشأتني نطفة ... ومن بعد ذلك لحم ودم
وأسكنت في جسدي روحه ... وأعجلتها في طباق الرحم
وأخرجتني بعد في عالمي ... وبلغتني درجات الفهم
فمنك لي البصر المقتفي ... وسمع وذوق ونطق وشم

فالشاعر يعدد نعم الله على الإنسان بطريقة تقريرية محضة دون معاناة تجربة ذاتية نابعة من الوجدان، ولهذا نحس جفافا في التعبير وبعدا عن الجمال الفني، بينما نراه هو نفسه يصف شوقه إلى أهله وولده وهو غريب عنهم فيصدر شعره عن تجربة ذاتية فريدة يمتزج فيها عقله بوجدانه، فيجود شعره حتى نشاركه حرارة التجربة حيث يقول:

مسهّد القلب في خديه أدمعه ... قد طالما شرقت بالوجد أضلعه
داني الهموم بعيد الدار نازحها ... رجع الأنين سكيب الدمع مفزعه
يأوي إلى زفرات لو يباشرها ... كاسي الحديد فواقا ذاب أجمعه
ذكرى أفيراخه في كل ناحية ... توحى إلى القلب أسرارًا تقطعه
كم قد تحمل من أعباء نأيهم ... نضوا بنا بلذيذ النوم مضجعه
قد عاند الحزن حتى عاد يرحمه ... وساور الدمع حتى جف مدمعه

والنصان ـ بلا شك ـ ينطبق عليهما مفهوم الأدب الإسلامي، ولكن اشتراطنا جمال الفن في التعبير عن الرؤية الإسلامية يدفعنا إلى تفضيل النص الثاني على الأول برغم سمو الفكرة في النص الأول.

فلسفات خاصة:

وعن مستقبل الأدب الإسلامي وخاصة في مواجهة المذاهب الأدبية الغربية التي تغمر إنتاج مبدعينا في الشعر والرواية والمسرح، يؤكد الناقد الدكتور محمد مصطفى هدارة أن المذاهب الأدبية في الغرب إنما تعكس فلسفات أفرزتها العقلية الأوربية نتيجة ظروفها الخاصة، واستيحاؤنا هذه المذاهب مبتورة عن الفلسفات التي أنتجتها ومفصولة عن ظروفها ومجتمعها يوقعنا في التقليد السخيف الذي يؤكد عدم انتمائنا لأصولنا وإقحام ما لا يوافق قيمنا ومجتمعنا. ولهذا امتلأت آثارنا الإبداعية بالرؤى الوثنية حينا والمسيحية حينا آخر وبالعودة للبدائية تخلصا من مادة الحضارة. ثم دهمتنا الحداثة بالمعنى «الأبديولوجي» التي تنادي بالانقطاع المعرفي عن الماضي والحاضر وتعيس بنا في اللاعقل لتغوص في الغموض والعبثية.

> **الأدب الإسلامي بديل شرعي عن غموض الحداثة المخادعة البعيدة عن العقل والمنطق**

ولا شك أن الإنسان العربي المسلم يرى نفسه في حالة من الضياع إزاء التضارب والتضاد الواقع بين هذه المذاهب، ومن آل إليه الأمر في ظل الحداثة (المخادعة بسمها) من غموض وابتعاد عن العقل والمنطق.

ولهذا أرى أن تحدد الأصول الفكرية التي يستند إليها الأدب الإسلامي بوصفه مذهبا أدبيا ينسم بالحرية والوضوح والبقاء والتجدد في ظل الرؤية الإسلامية التي تسعى لخير البشرية، ويستحيل اتهامها بالمحلية أو الانعزالية أو الجمود أو التطرف.

رحيل الشاعر

شعر/ محمد التهامي

أيُّهـــا الشـــاعـــرُ مـــاذا رَوَّعَكَ ... فـــاحتَـــرفت الصَّمْتَ كيْـــلا نَسْمَعَكْ
وارتَضَيْتَ البُعْـــدَ عـن أنظـــارنـــا ... فحملت الصَّبْـــر والسَّلْـــوى مَعَكْ
قـد تـركت الـرَّوْضَ قفـرًا مُـوحشـا ... فتمنَّـى كلُّنـــا أن يتبعـك
هـــذه أرواحنـــا نَفْـــدي بِهـــا ... إن يكـنْ في طـــوقهـــا أن تـــرجعِكْ

هَلْ وهـــذا الهَـــولُ في آفـــاقِنـــا ... أيُّهـــا العمـــلاق تخْلى مـــوقعَكْ ؟
كنت في الأهْـــوالِ طَـــوْدًا شـامخًـــا ... مـــا رأينـــا أيَّ هـــوْلٍ زعـــزعَكْ
جئت بـــالشعْـــرِ ضِيـــاءً ســـاطعًـــا ... فتحـــرَّتْ كلُّ عين مـــوضعَكْ
تَعبُـــرُ الغَيْم وتضـــوى فـــوقَـــهُ ... مـــا استطـــاعتْ غيمـــةٌ أنْ تمنعكْ
تقطفُ الـــورد وتُهـــديـــه لَنـــا ... وعضُـــوضُ الشـــوكِ يُـــدمى إصبَعَكْ
وتَصُبُّ الشَّهْـــدَ في أفـــواهِنـــا ... قـــانعًـــا من نحلِـــهِ أنْ يلْسعَكْ
وعـــرضتَ الثّغـــر بســـامًـــا لنـــا ... وكتمتَ الجـــرحَ مهْمـــا أوجعكْ
تُطْلِقُ البَسْمـــةَ في أفْـــواهِنـــا ... وتغطِّـى فـي شمـــوخ أدمعكْ
وتَـــرُدَّ النَّـــار عن أضْـــلاعنـــا ... حين تلقي في لظـــاهـــا أضْلُعكْ
وتُضِئُ الحلمَ في أجْفـــانِنـــا ... والسّهـــاد المـــرّ أشْقى مضجعكْ
فشَفَيْتَ الجُـــرح في أعْمـــاقنـــا ... بعـــدمـــا أجـــريت فيـــه مِبْضعكْ

كيف نحيـــا دون شعْـــر ســـاحـــر ... صـــاغـــه الـــرَّحمن لمَّـــا أبـــدعكْ
تَعْـــرِفُ الحقَّ صـــوابًـــا كُلَّـــهُ ... مـــا تـــركْتَ الـــزَّيْفَ حتى يخـــدعكْ
كم تـــوالى بـــاطل مسْتحْكمٌ ... ثـمّ ولى عـــاجـــزًا أن يقنِعَكْ
أغْلـقَ الحـقَّ علـى أسْـــرارِه ... وعليْهـــا في جـــلاء أطلعَكْ

أتُـــرى أرهقتَ من الآمنـــا ... وتَمَـــادى القهْـــرُ حتى ضيّعَكْ
قُلْ لنـــا بـــالله يـــا قِنـــديلَنـــا ... كيف يحيَـــا في الـــدُّجى مَنْ شيّعَكْ ؟

الرذاذ

القصة الفائزة بالجائزة الأولى
في مسابقة القصة والرواية

أحمد محمود مبارك

تتوارى المسافات خلفه ويغزو ضبابُ المساء ورذاذُ البحر زجاجَ السيارة، فتتخبط الرؤيـة.. لكن السرعة لا تهدأ والألم ينمو ويتفشى في كل كيانه.. مشتت.. ضائع وهو صاحب الألقاب العديدة.. هو الدكتور الموسوعي والمفكر المرموق والأديب الرائد المتطور، صاحب الفكر الحر كما يطلقون عليه.. لم يعد يرى ما أمامه.. رأسه يغلي لا تؤثر فيه لفحات الهواء الرطبة في ليل الخريف.. يفتح نافذة السيارة لنهايتها ويهدّئ من السرعة.. يقترب من الشاطئ.. يتوقف، يخرج متجها ناحية البحر.. يشعل لُفافة ويحرر رقبته قليلا من ربطة العنق ويملأ رئتيه بالهواء المشبع برائحة الملح. يجلس متهالكا على صخرة كبيرة وعيناه تجولان فيما حوله.. الأفق الأسود لا نهائي. السماء بلا قمر أو نجوم.. أشباح النباتات متباعدة وأعمدة الكهرباء القليلة على الجانب الآخر شاحبة الأضواء.

على بعد كيلو متر من هذه التلال المقابلة للشاطئ، مقابر والدك ووالدتك وأجدادك، وغير بعيد عنها مساكن الإخوة والأخوات والأعمام والخالات، فروع الشجرة العتيقة التى انفصلت عنها بإرادتك.. الآن. الآن فقط تتذكر وتدرك وترى. رغم الظلام والسنين.. الآن تشعر بالحنين إلى البحر إلى قوارب الصيد.. إلى رائحة السمك في السلال «البوص» إلى ومضة البشر في عينى والدك حينما تمتلئ السلال، إلى الاسم الحقيقي لك، الاسم الذي همس لك به منذ أسبوع فعمَّك الغضبُ. الغضب الذي تستطيع دائما أن تُخفيه بابتسامة مصطنعة.. قلت لنفسك وقتها: إن حقده عليّ لا ينتهي بل يكبر كلما ازداد نجاحي. إنه يذكرني بماض وارثه من زمن.. يريد أن يعيدني إلى سفح الحياة الاجتماعية بعدما وصلت إلى القمة. لا أحد يعرف هذا الاسم إلا هو حتى الأهل والأقارب في هذا الساحل نسوه ونسوني. من يعرف غيره أنني غيّرت اسمى فور حصولي على شهادتي الجامعية.. حتى أسبوع مضى كان في نظرك عدوك الأول.. كان معك في أوربا، كنتما الوحيدين بين شباب هذا الساحل اللذين يشار اليكما بالبنان. تخرجتما من الجامعة معا، وبُعثتما إلى أوربا وحصلتما على الدكتوراه وعدتما معا. انخرط هو في عمله الجامعي، ولم يشغلك عملك الجامعي عن طموحاتك الأخرى. حقّقت أكثر مما كنت تصبو إليه من شهرة وبريق ومال طوال ثلاثين عاما، ونجمك لا يخبو. يتألق ضياؤه وينتشر.. يسعى إليك المال وتطاردك أضواء المصورين ومندوبو الإذاعة والتلفاز ومحرّرو الصفحات الثقافية، تغمر كتُبك وروايتك الأسواق وتثوى في رؤوس الأجيال.. تنحني لك الهامات وتلتهب الأكف كلما نطقت بعبارة.. يعرفك العلماء والساسة والمثقفون والفنانون وأنصافُ المثقفين، حتى رجل الشارع الأمّى يعرفك من خلال صورك المفروضة على الصحف وشاشات التلفاز. أمّا هو فيكاد يكون مغمورا رغم الدكتوراه ومرور السنين. لا يعرفه غير الأساتذة والطلاب الجامعيين من المتخلفين فكريا.. آه الآن تبيّنت.. تبينت الآن فقط سلامة أفكاره.. أفكاره الراسخة منذ سنين طويلة كان من قبل يوجهها إلى عقلك وعينيك مثل كشافات ضوئية وكنت تأبى وتنفر. أتدرك الآن أن ابتعادك كان ابتعاد الخفاش الذي يحلو له أن يغازل وجه الظلام؟.. أموقن أنت الآن بأنك كنت ترى الوهم طوال هذه السنين؟ كم سخرت منه حين قال لك في أوربا قبل عودتكما بشهور:

إننا أبناءُ ساحل فقير. أبناء تقاليد وقيم ومثل دينية راسخة.. أطعني سيضرك هذا الزواج. ألقلّة النساء في بلدنا تتزوج من أوربية على غير دينك ومبادئك وتقاليدك وقيمك؟ أتأمن منهب على خلق أولادك ودينهم..؟ يومها قلتَ لنفسي ساخرا من ضيق أفقه إنه مازال يتكلم على التقاليد والقيم.. قيم الصيادين في ساحل «أبي قير».. ما الذي جاء بك إلى هنا الآن؟ لقد أصبحت قريبا من منزله. منزله الذي كنت قد نسيته وذكرك به حين دعاك إليه منذ أسبوع.. حينها رمقته متقززا وأنت تقول فرصة أخرى، فرصة أخرى... ما الذي دفعك أن تكون في هذا المكان في مثل هذا الوقت؟ أأنت مدفوع إلى الاعتراف له بانهيارك وفشلك وضياعك. ألأنه الصلة الوحيدة الآن بينك وبين «أبي قير» إنه الوحيد الذي يعرف أهلك وأحوالهم ومنازلهم ومن تبقى منهم على قيد الحياة، لكن ماذا تريد منه أو منهم بعد كل ما حدث؟ أتريد أن تثبت له وإليهم أنك تُعانى مغبة أفكارك وطموحك المحرف؟ أتريد أن تعترف له بأنك لم تكن غير أسطوانة ملست تفكر مسموم كنت وظللت تبثه في عقول الكثيرين، وها أنت الآن أكبر ضحاياه.. هذا ليس بحديد عليه. كان يتوقع ذلك وكثيرا ما حدثك في هذا الأمر منذ كنتما في أوربا، وظل يطاردك به في كل مرة تأتي فيها إلى هذه المدينة مدعوا لاحتفالية فكرية وبحثما في مهرجان أدبي كنت كنت تسعى لتصحيح أفكارك وكنت تعتقد أنه كان يخرج مهروما يحرق سمعه هدف بالأمس حتى [illegible] استحسان لما تقول و[illegible] الرجعي. وكان حين ينصرف وهمي بأن عينه منه أسبوع فقط [illegible] لأن سيتبع [illegible]

ويشاهدون حواركما . . وبالتأكيد وكالعادة سيسخرون من كلمات ذلك المغمور التي يتفوه بها من مقاعد المشاهدين ويبجلونك ويقدرون كلماتك التي تقذفه بها بكبرياء وأنت على المنصة العالية . . قال لك مذيع التلفاز بعد انتهاء الحفل وهو يتقرب إليك متزلفًا :

الأسبوع القادم في الساعة العاشرة والنصف مساء يا دكتور، ستذاع هذه الندوة . بعد دقائق سيشاهد الناس البرج قبل أن يهوي على إثر الزلزال سيسمعون كلماتك التي خرجت بعظمة مع دخان لفافتك الكثيف تعقبها ومضة عيون الحسناوات اللامعات المصبوغات . سيسمعونك تقول ردا على سؤال لأحد الشبان المتحفظين يدور حول الأدب والجنس وانتشار القصص والروايات التجارية الفاضحة .

إن تقييد حرية الأديب بأي قيد كان هو عملية وَأْد للملكة الإبداعية ولا يمكن التذرع بأن ثمة التزامًا بمبادئ خلقية موجهة يجب أن يضعها الأديب في اعتباره وهو بصدد إبداعه عملاً أدبيًا فالمنطلق الوحيد الذي ينطلق منه الإبداع هو متعة الفن . . متعة الفن فحسب .

وسيسمعونك ويشاهدون انفراج الشفاه القرمزية إعجابا وأنت ترد على سؤال لإحداهن قائلا : لا إن أي قيد يطالب به بعض المتخلفين على حرية المرأة في العمل والفكر والمعيشة والاختيار تحت اسم التوجيه والالتزام ما هو إلا ردة رجعية تبتغي الرجوع بالمجتمع إلى عصر الظلمات وأنا طوال عمري أنادي بتحطيم أي قيد أو حاجز يحول دون انطلاق المرأة الشرقية كي تصل إلى ما وصلت إليه المرأة في الغرب من رقي وتقدم، ولقد طبقت في حياتي الشخصية تلك الأفكار التي أنادي بها ولم أكبل ابنتي الوحيدة بأي قيد من القيود في دراستها أو عملها أو معيشتها بل وبيتها على الحرية والتحرر من كل الموروثات البالية، وساعدني على ذلك زوجتي العظيمة بل الحق أقرر أن لزوجتي دورا كبيرا في نجاحي ونجاح ابنتي وحسن تنشئتها وأنتم تعلمون أنها أوربية مثقفة وواسعة الأفق، بل إنني أقرر أمامكم أن هذه السيدة قد خلصتني من رواسب التفكير الرجعي التي كانت عالقة بذهني وانطلقت بي إلى آفاق فكرية رحبة ومستنيرة . .

سيسمعونك وأنت تزهو كالطاووس من أثر كلماتك في الحاضرين ويسمعونه وهو يعلق على ما ذكرت هادفا هدم أفكارك دون أن يقابل إلا بالاستنكار وتسخيف فكره . . آه يا عبد القادر كنتَ ومازلت حكيما أصيلا لم تنقطع عن جذورك . . لم تفقد أصالتك، لذا مازلت راسخا رغم أنك لم تَعُلْ للرائي عن الأرض كثيرا، أما أنا فتطاولت وتعاليت . . صرت برجا . . برجا من وهم ورمال، وها أنا الآن غير بعيد عن دارك محطم مهزوم تطاردني الذكريات ويعتصرني الفشل . . هانئ أنت بأسرة سعيدة وفكر قويم ثابت سألتك يومها بعد أن اعتذرت لك عن الذهاب إلى منزلك بأنفة وكبرياء : ما هي أحوالك يا دكتور عبد القادر؟ قلت : إنك سعيد ما دمت تؤدي رسالتك العلمية والأخلاقية دون النظر إلى النتيجة . . سخرتُ منك بيني وبين نفسي وقلتُ لك . . انقطعت أخبارك عني منذ سنوات، لا أراك إلاّ على فترات متباعدة وحينما آتي إلى هذه المدينة في لقاء ثقافي أو مهرجان أدبي . . ألم تزل تكتب الشعر؟ لم أقرأ لك شيئا منشورا . . لمحت في عينيك الواسعتين الوائقتين نظرة سخرية مني . . اغتظت منك واسترسلت . . ألم يزل طابع الوعظ مسيطرًا على شعرك؟ ازدادت ابتسامة عينيك ولم تتكلم . عرفت بعدها أن أصغر أبنائك هو الذي سألني سؤالا عن الأدب والجنس وشاركك في الاعتراض على إجابتي وأنه معيد بالجامعة وأن ابنتك طبيبة أطفال معروفة ومدرسة بطب الأزهر ومتزوجة من أحد المفكرين الدينيين الذين يشاركونك الاعتراض على أفكاري ومؤلفاتي ومنهجي . كنت أقرأ له في بعض الصحف ولم أكن أعرف أنه زوج ابنتك آه . . بالقطع أنت سعيد الآن يا عبد القادر، لقد عشت عمرك واثقا من سلامة فكرك راضيا سعيدا وستظل هكذا . . ما جدوى الذهاب إليك الآن؟ هل ستعيدني بناء راسخا؟ هل ستعيد فرعي العاق إلى الصلة بالجذور الأصيلة؟ لا جدوى لا جدوى إن مجيئ إلى هنا استكمال لعملية الانهيار .

كانت هناك أضواء واهنة تتبدى أمامه على مسافة بعيدة من الشاطئ تنعكس على صفحة المياه السوداء فترسم عليها أشباحا غريبة، وصوت ارتطام الأمواج بالصخور يتلاقى مع حديث الرياح الخريفية في ليل غامض، فينجم عن ذلك ضجيج حزين مخيف . شعر بصداع حاد وعاش في رؤى مُرعبة متشابكة . رأى الأشباح تحاصره، سمع الأصوات تلطم أذنيه، أمسك برأسه وأذنيه، وسار على الرمال منهكًا مترنحًا . . الرمال تجذبه إلى الأمام . هلع . أراد أن يجري إلى الخلف . . جرى . . جرى بلا انتظام ولا قدرة له على السيطرة على شيء .

أمسك الصحفي اللامع المشرف على تحرير مجلة أدبية شهيرة بسماعة الهاتف وقال بنبرة ملؤها الدهشة لمن يحادثه . هل أنت متأكد من أن الدكتور نجم هو كاتب هذه القصة وهو الذي تركها لي لنشرها .

أجابه الصوت الآخر .

أجل يا فندم . . لقد حضر إليك منذ يومين ولم يجدك . . وكان مرهقا متوترا فلم ينتظرك طويلا وتركها، وذكر أنه سيسافر وطلب سرعة نشرها . زفر الصحفي اللامع وهو يضع سماعة الهاتف بحدة وبدت نظراته زائغة ورجع بمقعده إلى الخلف واعتصر جبينه حائرا مندهشا وهو يعيد قراءة بعض عبارات القصة التي أمامه . . ثم اعتدل وهمس لشخص يجلس أمامه .

أمر غريب، لقد ترك لي الدكتور نجم قصة غريبة بعنوان «الزلزال» لم أزل أشك أنه كاتبها، وحاولت أكثر من مرة الاتصال به بعد أن قرأتها دون جدوى، عامة لن أستطيع نشرها . لا بد من لقائه ومناقشته في فكرتها . إنه بهذه القصة يهدم ما شيده، يحطم نفسه بنفسه، يقضي على أمجاده واسمه الكبير، يبدو أن شيئًا غريبًا قد حدث .

في اليوم التالي كانت الصحف الصباحية تنشر حادثا شد الانتباه، قرأه الصحفي اللامع وهو يرتعد ويعيد الاطلاع على فقرات من القصة التي تركها له الدكتور الشهير . وكان الخبر الذي شغل مساحة واسعة في الصحيفة عن انتحار أديب ومفكر كبير وأستاذ جامعي مرموق بإلقاء نفسه ليلا في مياه البحر عند شاطئ أبي قير بالإسكندرية على إثر أزمة نفسية حادة أصابته منذ أيام قليلة، إذ ضبط البوليس ابنته الوحيدة التي تعمل في إحدى فرق الرقص الاستعراضي مع بعض الرجال والنساء في وكر للرذيلة والمخدرات، وضبط معها بعض الأجانب، تبين لجهات التحقيق أن لهم صلة صداقة بوالدتها الأوربية الأصل . . ارتخت أصابع الصحفي اللامع فوق مكتبه ورويدا رويدا زالت دهشته رغم الحزن الذي لم يزل مرتسما على وجهه ثم نظر في القصة من جديد نظرات خاطفة حزينة وضغط على صفحاتها بيده، ثم مزقها قطعا صغيرة وألقى بها في سلة المهملات .